

# عنوان المحاضرة الأولى: الحداثة الغربية

## الأستاذة: خالص زهرة

### 1- مفهوم الحداثة عند الغرب:

إن البحث عن حقيقة الأشياء يستلزم بالضرورة إحاطة، أو قل معرفة بالمصطلح المقصود وكلها تستدعي العودة إلى بيئته التي نشأ فيها وبلسان أصحابه، ما المقصود بالحداثة عند الغرب؟

الحداثة حركة فكرية عقلانية علمية هدفها تغيير المفاهيم والمناهج التقليدية التي تعالج الفن والأدب وإرساء مفاهيم وقواعد جديدة. والحداثة عند الغرب شملت مجالات عديدة وهذا ما أضفى عليها صفة العالمية، فالحداثة باعتبارها منهجا أو طريقة في التفكير لم تكن حكرا على مجال دون آخر فإلى جانب الأدب والنقد موضوع البحث، فقد تبنته السياسة والاقتصاد والتاريخ وعلم الاجتماع... تماما هذا ما أكده "جان بوديار" عندما قال بأن الحداثة ليست مفهوما سوسولوجيا أو مفهوما تاريخيا فقط بل يتعدى هذا وذلك إلى تخصصات أخرى، كيف لا وموضوع الحداثة اعتبر صفة بشرية أو نزعة إنسانية، وهذا ما يجعلها تتعالى عن كونها لصيقة بتخصص دون آخر.

نشأ مصطلح الحداثة ضمن حقل النقد الأدبي ثم استمر ووظف في حقول معرفية أخرى كالاقتصاد والسياسة والتحليل النفسي والألسنية والاقتصاد واللاهوت... ليشير إلى فترة زمنية تاريخية مر بها الغرب.

هذا عن مجالاتها أما عنها فمصطلح الحداثة يصعب تحديده، ربما لأنه متجدد مستمر في الزمن يأبى الرضوخ ولا يقبل التجاوز. فمفهوم الحداثة مفهوم عائم ملغوم يلغي ذاته باستمرار بيد أنه استطاع أن يخلق فينا ردودا متناقضة وتوترا نادرا بين الارتكاس والانبهار بين الدعاية اللامشروطة والرفض المبرم.

إذن الحداثة تنشأ التغيير والتجديد والاستمرار الذي يجعلها تتغلب على كل من يحاول حصرها وتقييدها بمعنى محدد.

الحداثة بمفهوم الغرب تنشد الجديد دائما وأنها كمصطلح ظهر في النقد وشمل الفن والأدب، وهو مصطلح يصعب علينا أن نمسك بالمعنى فيه لأنه يتغير ويتبدل ويظهر كل مرة بشكل جديد.

إذن مصطلح الحداثة يوضع اليوم تحت الترجيح ويدخل ضمن المفاهيم المستعصية على التعريف والتحديد الراض لكل نمذجة. وهذا ما يجعله مستقطبا للأنظار محتلا للصدارة، ولأنه كذلك ما لبث أن شمل مجالات عديدة مستوليا بذلك على العقول، فسرعان ما أصبح شعارا للفرد وملاذا وجده أخيرا بعد رحلة بحث دامت قرون، فيصبح بهذا المعنى طريقة في التفكير قبل أن يرحب به أي علم ويوظف ما جاء به. لكن لا يختلف اثنان في كون الحداثة محاولة لتجاوز كل ما هو تقليدي، فهي تهدف إلى التجديد وبالتالي تنبذ القديم وتتركه وراءها معتبرة إياه من التاريخ، أحد المسائل التي عملت الحداثة على تجاوزها.

فالحداثة وإن كان مفهوما يصعب تحديده يبقى ذلك المفهوم الساعي إلى الجدة ومواكبة كل ما هو مستحدث، وبفضل هذه الصفة التي ميزتها استطاعت أن تمتص كل المشاريع التي جاءت بعدها تحت شعار أن الحداثة إلى اليوم لا تمتلك معنى محددًا وبالتالي فكل ما جد هو ضمنها إلى حين، فالحداثة في النهاية ثورة على التقليد ورهانا على التجريد والتجريب والتجديد. إن هذه المفاهيم التي أعطيت لها تجعلنا نتساءل عن السبب أو الظروف التي نشأت في ظلها. لماذا هذا النبض للماضي؟ لماذا تحتقر الحداثة التاريخ وبالضبط الفترة السابقة لظهورها فماذا يجربنا التاريخ عنها؟

## 2- جذور الحداثة الغربية:

عاش العالم الغربي فترة ظلام دامس عرفت بالقرون الوسطى أو العصور الظلامية، مر فيها الغرب بأحلك أيامه وأسوئها على الإطلاق نزل فيها الفكر إلى أسفل الدركات وعم الجهل نتيجة سيطرة رجال الكنيسة حيث منعت كل أنواع الفكر والوعي، وعدت المعرفة نوعا من التطاول ينبغي القضاء عليها. كان من حق رجال الدين معاقبة أي كان دون أن يكون له الحق في الدفاع عن نفسه حتى اتهموا وحاكموا الموتى وصادروا أملاكهم، هي بالفعل فترة يشهد التاريخ على أنها سبقت عصر النهضة.

والمثير للدهشة أن من مهد للنهضة هم رجال الدين، طبعاً كان هذا شعاع النور الذي توسط دياجير الظلام في أوروبا، بعدما كانوا يؤمنون بالأسطورة أو التفكير الأسطوري، وهو ما كان سبباً كافياً ليعم الجهل فالأساطير غالباً ما تدخل فيها قوى وكائنات أقوى وأرفع من البشر تدخل في نطاق الدين فتبدو عندها نظاماً شبه متماسك لتفسير الكون. وكنتيجة منطقية لتغييب العقل عاش هؤلاء حياتهم معتمدين على ما تمليه عليهم أوهامهم وجهلهم، إن في وسع المخيلة البشرية إفراز هذيان كثير حين هي ليست تحت سلطة العقل والمنطق.

كان لظهور العلم والأفكار التنويرية أثر كبير في تخلص أوروبا من ظلامها وأول خطوة خطاها هؤلاء هو التخلص من السيطرة الإقطاعية والعمل على إثبات مبدأ العدل والمساواة فقد كان المجتمع آنذاك مقسماً إلى طبقات، طبقة قاهرة وأخرى مقهورة.

كما أصبح العلم الراية الوحيدة التي استطاع الغرب من خلالها تجاوز الترهات والخرافات التي فرضتها الكنيسة فحجبت من خلالها حقائق كثيرة أهمها المكانة التي احتلها الفرد في المجتمع وقيمه كذات عاقلة تنشأ الحرية. إن حاجة الإنسان إلى الفكر والمعرفة ورغبته في الجمال وغريزته نحو المجتمع، كلها تتطلب الإحساس بمثيراتها بها والإحساس بها.

كلها كانت بواعث لدخول أوروبا عصر جديد عرف بالحدثاء كإعلان عن نهاية الميتافيزيقا وبداية عصر العلم والتجربة وإرادة الإنسان ككائن عاقل لا تحكمه الأساطير ولا إرادة الآلهة.

فالحدثاء الغربية قد آلت كمشروع ميتافيزيقي إلى نهايتها، وأشرفت على تمامها واستيفاء إمكاناتها حين صارت ماهية الإنسان تعلو على ذاته إلى مصاف الإنسان الأعلى وأيضاً حين صارت المعرفة تمثلاً والعلم حضوراً للعالم كصورة موضوعة إزاء الذات وحين صارت التقنية الكوكبية هيمنة على الأرض واستيلاء على ماهية العالم.

إذن الحداثة مرتبطة أشد الارتباط بالمسار التاريخي والظروف التي مر بها العالم الغربي أثناء تجاوزه لفترة العصور الظلامية، يعني أنه لا يمكن فهم معنى الحداثة دون العودة إلى الظروف التاريخية التي كانت سببا في ظهورها بمعنى آخر لا يمكن فصلها عن الفترة السابقة لميلادها. فالحداثة نتاج غربي محض ونتاج لتطور تاريخي غربي.

كانت الحداثة صورة تجلّى من خلالها حلم العالم الغربي في البحث عن عالم مثالي بعيد الاعتبار للإنسان بعد أن أرهقته قوانين الكنيسة الظالمة.

كلها مستجدات حملها القرن 17م تجلّى من خلالها الثورة الصناعية، والعلم التجريبي، والثورة الفرنسية كصورة للوعي والفكر التنويري الذي ناد به الفرنسيون، معلوم أن أوروبا شهدت بين القرنين 17م و18م جملة من التحولات الجذرية في ميدان الثقافة ومجال العمران البشري والاقتصاد والسياسة ومعلوم أيضا أن هذه التحولات الشاملة بلغت ذروتها مع الثورة الصناعية في إنجلترا والثورة الفرنسية.

فكان للعلم التجريبي والفلسفة العقلية الدور الكبير في تجسيد معنى الحداثة.

## أ- العلم التجريبي:

على الرغم من محاولات الكنيسة في تجميد العقول، استطاعت الأفكار العلمية الداعية للتحرر من سلطة الكنيسة الانتصار في النهاية، وقلب الموازين كان ذلك إيذانا بانقضاء عصر السيطرة على البشرية، وتصدر الانسان مركز الريادة، فأصبح هو من يتحكم في العالم وليس العالم من يتحكم فيه.

كان العلم هو الباعث على ذلك فظهرت العلوم الطبيعية والفيزيائية استجابة للأفكار التي جاء بها "غاليلي" حين اكتشف أن الأرض ليست ثابتة في مركز الكون وهذا ما دحض أفكار "أرسطو"، و"بيكون"، و"جون لوك"، و"هيوم".

على العموم استطاع العلم تغيير الفكر، فأصبح هناك مفهوم للسببية واليقينية وكله استدعى التجربة والملاحظة وبالتالي التخلص من الأفكار المخيفة التي خلفتها القرون الوسطى عندما كانت تبني العالم على أساس أنه يخضع لإرادة ماورائية.

## ب- الفلسفة العقلية:

لم يكن العلم وحده من أخرج العالم الغربي من ظلامه بل كان للفلسفة أيضا دور كبير في تعديل مسار الفكر.

إن التفكير الفلسفي الذي اعتمد العقل طريقا للوصول إلى الحقيقة في الواقع لم يكن سوى استجابة لما جاءت به الثورة العلمية وتأكيدا لمركزية الوجود البشري في مقابل ما تدعو إليه الكنيسة من اعتماد الدين كوسيلة وحيدة للوصول إلى الحقيقة فأصبح العقل محل العقيدة والإيمان.

وعليه ظهر المذهب المثالي الذي يقر بأنه لا وجود لكائنات أخرى غير الكائنات العاقلة والموضوعات الأخرى التي نطن أننا ندركها بالعيان ليست إلا تمثلات في الكائنات العاقلة لا يقابلها في الواقع أي موضوع خارجي.

ولعل رائد الفلسفة العقلية دون منازع هو "ديكارت" باستحدثاته للشك المنهجي تحت شعار "أنا أفكر إذن أنا موجود." من خلال هذه المستجدات أصبح من الممكن تجاوز الأفكار الظلامية وإرساء قواعد لفكر جديد قوامه العقل والتجربة.

وبناء على ذلك كان لابد للأدب أن يستجيب لهذه الثورات الفكرية وأن يتجه بالشعر والنقد اتجاهها آخر ينشد في ذلك كسر المألوف واعتماد التغريب وسيلة في الإيضاح، في نفس الوقت حاول توظيف ما وصل إليه العلم والعقل عند الغرب فما لبث أن ارتبط النقد بالفلسفة بعد أن انفصلت عنه لبعض الوقت وكذلك كان للعلم حضورا وضحا، متمثلا في المنهج الوصفي.

إذن فالحدثاة مرتبطة عند الغرب بالفكر والإيديولوجية وبقناعات هؤلاء أيضا فهي ليست بريئة كما تبدو للناظر بل تحمل في طياتها حضارات أمم بأكملها.

## المراجع:

-عبد الغني بارة، إشكالية تأصيل الحدثاة في الخطاب النقدي العربي المعاصر (مقاربة حوارية في الأصول المعرفية)

-محمد الشيكور، هايدغر وسؤال الحدثاة، إفريقيا الشرق، 2006م.

-سمير سعيد حجازي، النقد العربي وأوهام رواد الحدثاة، مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع، 2005م.

-فيصل عباس، الفلسفة والإنسان جدلية العلاقة بين الإنسان والحضارة، دار الفكر العربي للطباعة والنشر.